

الإمام ابن القيم يجيب عن السؤال المهم

كيف تقرر عينك بالصلاة؟

الصلاة قرّة عيون المحبين في هذه الدنيا؛ لما فيها من مناجاة من لا تقرّ العيون، ولا تملّطن القلوب، ولا تسكن النفوس إلا إليه، والتنعّم بذكره، والتذلل والخضوع له، والقرب منه، ولا سيما في حال السجود، وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»، فأعلم بذلك أن راحته في الصلاة كما أخبر أن قرّة عينه فيها، فإين هذا من قول الغائل: نصلي ونستريح من الصلاة!

فالمحب راحته وقرّة عينه في الصلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك، بل الصلاة كبيرة شاقّة عليه، إذا قام فيها كأنه على الجمر حتى يتخلص منها، وأحب الصلاة إليه أعجلها وأسرعها، فإنه ليس له قرّة عين فيها، ولا لقلبه راحة بها، والعبد إذا قرّت عينه بشيء واستراح قلبه به فاشق ما عليه مفارقتها، والمتكفّل الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحنة الدنيا اشق ما عليه الصلاة، وأكثره ما اليه ملولها، مع تفرغه وصحته وعدم اشتغاله!

ومما ينبغي أن يعلم: أن الصلاة التي تقرر بها العين ويستريح بها القلب هي التي تجمع ستة مشاهد:

المشهد الأول: الإخلاص

وهو أن يكون الحامل عليها والداعي إليها رغبة العبد في الله، ومحبة له، وطلب مرضاته، والغرب منه، والودود إليه، وإستئثار امره، بحيث لا يكون الباحث له عليها خطًا من حطوط الدنيا البتّة، بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الأعلى، محبة له وخوفًا من عذابه، ورجاء لغفرته ونوابه.

المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح

وهو أن يفرغ قلبه لله فيها، ويستفرغ جهده في القيام بها على الله، وجمع قلبه عليها، وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهراً وباطناً، فإن الصلاة لها ظاهر وباطن؛ فظاهرها: الأفعال المشاهدة والأقوال المسووعة، وباطنها: الخشوع والراقية وتفرغ القلب لله والإقبال بقلبه على الله فيها، بحيث لا يثقل قلبه عنه إلى غيره، فهذا بمنزلة الروح لها، والأفعال بمنزلة البدن، فإذا خلت من الروح كانت كبدن لا روح فيه، ألا يستحي العبد أن يواجه سيده بمثل ذلك! ولهذا قلب كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني.

والصلاة التي كمل ظاهرها وباطنها تصعد ولها نور وبرهان كنور الشمس حتى تعرض على الله فبرضاها ويقبلها، وتقول: حلفتك الله كما حلفتني.

المشهد الثالث: مشهد المتابعة والإقتداء

وهو أن يحرص كل الحرص على الإقتداء في صلاته بالنبوي صلى الله عليه وسلم ويصلي كما كان يصلي؛ ويعرض عما أحدث الناس في الصلاة، من الزيادة والنقصان، والأوضاع التي لم يغلغل من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء منها ولا عن أحد من أصحابه؛ ولا يلف عند أقوال المرحصين الذين يفلون مع أقل ما يعتقدون وجوبه، ويكون غيرهم قد تازعهم في ذلك وأوجب ما أسقطوه، ولعل الأحاديث الثابتة والسنة النبوية من جانبها ولا يتفلقون إلى ذلك، ويقولون: «نحن مفلون ذهب فلان»، وهذا لا يخلص عند الله ولا يكون عذراً لمن تخلف عما علمه من السنة عنه، فإن الله - سبحانه - إنما أمر بطاعة رسوله واتباعه وحده ولم يأمر باتباع غيره، وإنما يطاع غيره إذا أمر بما أمر به الرسول، وكل أحد سوى الرسول صلى الله عليه وسلم فمأخوذ من قوله ومثروك.



وقد أقسم الله - سبحانه - بنفسه الكريمة أن لا يؤمن حتى تحكم الرسول فيما شجر بيننا، وننقاد لحكمه ونسلم تسليمًا، فلا نبتغعًا تحكيم غيره ولا انقياد له، ولا ينجبنا من عذاب الله، ولا يقلل منّا هذا الجواب إذا سمعنا نداءه - سبحانه - يوم القيامة ماذا أجبت للمرسلين [القصص: 65] فإنه لا يد أن يسألنا عن ذلك، ويطلبنا بالجواب، قال تعالى: فلنسانن الذين أرسل إليهم ولنسانن المرسلين [الأعراف: 6]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أوحى إلي أنكم بي تقتنون وعني تسألون» [صحيح الجامع: 1361]، يعني المسألة في القبر، فمن أثبت اليه ستة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركها لقول أحد من الناس فسيرد يوم القيامة ويعلم.

المشهد الرابع: مشهد الإحسان

وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه. وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وإسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله - سبحانه - فوق سمواته، مستويًا على عرشه، يتكلم بامرء ونهيه، ويدير أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافقة عليه، فيشهد ذلك كله بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قوماً جيا، سميعا بصيرا، عزيزا حكما، أمرا ناهيا، يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه، لا تخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا

أقوالهم ولا بوأظهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنه يوجب الحياء، والإجلال، والتعظيم، والخشية، والمحبة، والأناية، والتوكل، والخضوع لله - سبحانه - والدّلّ له؛ ويقطع الوسواس وحديث النفس، ويجمع القلب والهيم على الله.

فقط العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد.

المشهد الخامس: مشهد العفة

وهو أن يشهد أن المنة لله - سبحانه -، كونه آفاه في هذا المقام وأمله له ووقته لقيام قلبه وبدنه في خدمته، فلو لا الله - سبحانه - لم يكن شيء من ذلك، كما كان الصحابة يحدون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: «والله لو لا الله ما اعتدبنا ***» ولا تصدقنا ولا صليبا، قال الله تعالى: «يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على أسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صارقين» [الحجرات: 17] فإنه - سبحانه - هو الذي جعل المسلم مسلما، والصلبي صلبا، كما قال الخليل صلى الله عليه وسلم: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن دزيتنا أمة مسلمة لك» [البقرة: 128]، وقال: «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن

■ الناس في الصلاة

خمس مراتب: الإخلاص

والصدق والنصح

والمتابعة والإقتداء

والإحسان والتقصير

■ إذا أراد الله أن يرحم

عبده يوم القيامة وهبه

نعمه وغفر سيئاته

وضاعف حسناته

صدوداً، وطريق الوصول إليه عنه سدوداً، بل هو كما قال تعالى: «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» [الحجر: 3].

المشهد السادس: مشهد التقصير

وإن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد، وبذل وسعه فهو مقصر، وحق الله - سبحانه - عليه اعظم، والذي ينبغي له أن يخلص من المعاتة والعبودية والخدمة فوق ذلك بكثير، وأن يغفله وجاله - سبحانه - يقتضي من العبودية ما يليق به.

وإذا كان خدم الملوك وعبيدهم يعاملونهم في خدمتهم بالإجلال لهم، والتعظيم، والاحترام، والتوقير، والحياء، والمهابة، والخشية، والنصح، بحيث يفرغون قلوبهم وجوارحهم لهم، فملك الملوك ورب السموات والأرض أولى أن يعامل بذلك، بل بأضعاف ذلك.

وإذا شهد العبد من نفسه أنه لم يوف ربه في عبوديته حق، ولا قريبا من حقه، علم تقصير، ولم يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاستعاز من تقصيره وتقريره وعدم القيام بما ينبغي له من حقه، وأنه إلى أن يغفر له العبودية ويعفو عنه فيها أحوج منه إلى أن يطلب منه عليها ثوابا، وهو لو وفأما حقا كما ينبغي لكانت مستحقة عليه بمقتضى العبودية، فإن عمل العبد وخدمته لسيد مستحق عليه بحكم كونه عبده ومملوكه، فلو طلب منه الأجرة على عمله وخدمته لعدت الناس أحق وأحق، وهذا وليس هو عبده ولا مملوكه على الحقيقة، وهو عبده لله، ومملوكه على الحقيقة من كل وجه، فعلمه وخدمته مستحق عليه بحكم كونه عبده، فإذا أتاه عليه كان ذلك مجرد فضل ومنة وأحسان إليه لا يستحقه العبد عليه.

ومن ههنا يفهم معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «فأربوا وسددوا، أعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: يا رسول الله ولا أنت، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منته وفضل» [رواه مسلم: 7295].

من قصص الأذكياء عبر التاريخ

يعبر الحدود حاملاً التراب

التي تدبر الزوج -.. وفق محامي الدفاع يتعلق بأي فشة لينفذ موكله.. ثم قال للفاضي: ليصدر حكما بإعدام علي قاتل، لأن من لا تتوافر لبيئة المحكمة يقين لا يقبل الشك بأن المتهم قد قتل الضحية، وأن.. سيدخل من باب المحكمة... دليل قوي على براءة موكلتي وعلى أن زوجته حية تترقب، وفتح باب المحكمة واتجهت لتتأثر كل من في القاعة إلى الباب، وبعد لحظات من الصمت والترقب... لم يدخل المتهم، وإنما طاع غيره إذا أمر بما أمر به الرسول، وكل أحد سوى الرسول صلى الله عليه وسلم فمأخوذ من قوله ومثروك.

قال ابن القيم -رحمه الله- في «مدارج السالكين»: من مثايل «أيك تغيب وأياك نستعين» منزلة المراقبة، وهي دوام علم العبد وتيقنه بإطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم اليقين بذلك هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، تأثر الله، سامع لقوله، مطلع على عمله، ومن راقب الله في خواطره عصمه الله في حركات جوارحه، قال أحدهم: والله أني لأستحي أن ينظر الله في قلبي وفيه أحد سواه، قال ذو النون: علامة المراقبة، ابتار ما أنزل الله، وتغظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال أبراھيم الخواص: المراقبة، خلوص السر والعلن لله جل في علاه، من علم، أن الله يراه حيث كان، وأن الله مطلع على باطنه وظاهره وسره وعلائقه، واستحضر ذلك في خلوته، أوجب له ذلك العلم واليقين.

ترك المعاصي والذنوب، أو كما قال الشافعي: